

لغة الحجاج وخطاب الهوية بين قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل الاجتماعي

The language of pilgrims and the discourse of identity between the values
of socialization and the culture of social communication

بن طرات جلول

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس (الجزائر)
jbentrat@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2023/07/11

تاريخ القبول: 2022/12/21

تاريخ الاستلام: 2022/03/22

ملخص:

إن طبيعة التطورات الفكرية والتحولت الثقافية والتاريخية التي صاحبت لغة العولمة وثورة الحداثة قد اختزلت مشكلات المجتمع العربي الإسلامي لاسيما ظاهرة الإغتراب الثقافي والإستلاب الإيديولوجي الذي انفرد بقضايا الصراع بين عالم الأفكار والأنساق والنظم، وكل الأفكار والقيم التي إنطوت تحت علاقة الإنسان بالآخر، لذلك فإن ما يميز هذا الواقع هي تلك الأزمات التي انعكست سلبا على عناصر الهوية وثوابتها الدينية واللغوية والتاريخية، أين ظهرت تجليات التمزق الثقافي، وإنهيار منظومة القيم المرتبطة بثقافة الماضي التي توجه المرجعية الوطنية على مستوى الدين واللغة والوطن، ومن ثم فلا يمكن أن نتحدث عن الهوية إلا ضمن خطاب يجمع بين الحجة والبلاغة لترسيخ قيم الهوية الوطنية وتعزيز جذورها ضمن تلك الممارسات اللغوية لخطاب الحجاج تلك المغالطات والأوهام التي تؤدي إلى تقويض ثقافة التواصل الاجتماعي مع مؤسسات التنشئة الاجتماعية التي تنفرد بدورها التربوي التعليمي الذي يتحرك في حدود متطلبات لغة التواصل والتأصيل الإسلامي لخطاب الهوية ضمن الحوار الأخلاقي بين أهداف وقيم التنشئة الأسرية، والمناهج والبرامج التعليمية للمنظومة التربوية، ومن ثم فتكامل الأدوار بين الأسرة والمدرسة قد يؤسس لولادة ثقافة التواصل الاجتماعي داخل لغة الحجاج في إطار أدوات التخاطب والتواصل وكطريقة لاستعمال لغة عقلانية تتماهى مع الواقع يضفي عليها الطابع البلاغي الذي يميل إلى المنطق والإقناع، ومشكلة المجتمعات العربية حاليا لزالتم تحقق نهضتها وتحافظ على هويتها بحكم تمثلات الصراع بين الثقافات والحضارات والأديان.

كلمات مفتاحية: لغة الحجاج-خطاب الهوية-الحداثة-العولمة-التنشئة الاجتماعية-التواصل-الإيديولوجيا-الإغتراب.

Abstract:

The nature of the intellectual developments and the cultural and historical transformations that accompanied the language of globalization and the revolution of modernity have reduced the problems of the Arab-Islamic society, especially the phenomenon of cultural alienation and ideological inflection, which is unique in the issues of conflict between the world of ideas and systems and systems, and all the ideas and values that have come under the relationship between man and the other. The reality is those crises that reflected negatively on the elements of identity and religious, linguistic and historical constants, where emerged manifestations of cultural rupture, and the collapse of the value system associated with the culture of the past, which directs the national reference on the level of religion and language We can not talk about identity except in a discourse that combines argument and eloquence to consolidate the values of national identity and strengthen its roots within those linguistic practices of the pilgrims' discourse. These fallacies and illusions that undermine the culture of social communication with the institutions of social upbringing that are unique in their educational educational role. Moving within the requirements of the language of communication and Islamic rooting of the identity discourse within the moral dialogue between the goals and values of family formation, curricula and educational programs of the educational system, and then the integration of roles between the family and the school may establish the birth of a culture of social communication Breached the pilgrims language in the framework of communication and communication tools as a way to use the rational language identifies with reality gives it a rhetorical nature which tends to logic and persuasion, and the problem of Arab societies currently still has not achieved its renaissance and maintain its identity by virtue of the representations and perceptions of the conflict between cultures, civilizations and religions

Keywords: Language of pilgrims - speech of identity - modernity - globalization - socialization - communication - ideology - alienation.

1. مقدمة:

يشكل خطاب الهوية في الدراسات الفلسفية والاجتماعية والنفسية المعاصرة حجر الأساس لمنظومة القيم داخل مؤسسات التنشئة الاجتماعية، أين يحاول المجتمع أن يؤسس لغة التواصل الاجتماعي مع

لغة الحجاج وخطاب الهوية بين قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل الاجتماعي

طبيعة هذه القيم عن طريق أساليب الحجاج والبلاغة وكل ما يعزز تلك الأنساق والأنماط وبني الوعي الثقافي التي تختزل عناصر الهوية وثوابتها على غرار اللغة والدين والوطن، ومن ثم فإن ثقافة التواصل تستهدف الدور التربوي والتعليمي لتلك المؤسسات في ربط كل القيم والمعتقدات بأهداف وغايات لغة الحجاج التي تتحرك في حدود مرجعية دينية ولغوية تتماهى مع طبيعة الثقافات والحضارات والأديان، فالتأصيل الإسلامي لمفهوم الهوية قد استوعب أزمات العالم التي اختزلت أشكال الاغتراب الثقافي ومظاهر الصراع الإيديولوجي التي انصرفت إلى تقويض تلك القيم، وحولت تلك الأفكار التي فرضتها ثقافة الآخر إلى أداة من أدوات التبعية والقابلية للاستعمار، خاصة تأثيرات العولمة والحدثة، وهو ما نلمسه من خلال طبيعة المشروع الثقافي الذي فرضته الحضارة الغربية على مستوى الفكر والسلوك معا، وضمن هذا المعنى فإن كل الحجج اللغوية التي تنفرد بها ثقافة التواصل الاجتماعي قد جعلت من الحوار الأخلاقي مع القيم والأفكار والمفاهيم نموذجا آخر ينطوي على دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية في ترسيخ قيم الوعي والانتماء كمشروع مجتمعي يختزل علاقة المجتمع بتلك القيم التي تستبطن خطاب الهوية نحو كل النظم الاجتماعية التي تلتقي معها ثقافة التواصل، ومن ثم فإن كل نظرية في الحوار تمثل مرجعا لقيم التنشئة في بعدها التربوي الأخلاقي، ومظهرها الحجاجي التواصل، أين ينصرف وعي الأفراد إلى ربط هذا المعنى بتلك التناقضات والصراعات التي تجعل من المجتمع العربي يعيش التحديات الاجتماعية التي تعبر عن واقع تلك الثقافة الحجاجية التي تنطوي على كل القيم التي أنتجها المجتمع لتعزيز السلوك الاجتماعي الذي يحمل ملامح هوية الفرد لاسيما عنصر اللغة والدين والتاريخ الذي يربط القيم التقليدية بالحديثة، وفي هذا الإطار جاء موضوع البحث ليقف عند حدود علاقة لغة الحجاج بمفهوم الهوية ضمن قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل، فأين تظهر تجليات هذه العلاقة؟

أولاً: الثقافة الحجاجية وعلاقتها بالهوية:

تنطلق الأساليب الحجاجية داخل المجتمع من استخدام تلك الأساليب اللغوية في عملية الحوار والتواصل الاجتماعي، أين تم الدفاع عن قيم المجتمع وأفكاره ومعتقداته وفق الأساليب التي تحدد مجال الحجاج كنظرية ثقافية لترسيخ قيم الهوية وثوابتها، فمؤسسات التنشئة الاجتماعية تحول كل القيم التربوية إلى ممارسات سلوكية قد تعيد نمذجة مفهوم الهوية وتشكله وفق خطاب المجتمع وثقافته التواصلية، «...فقد تهدف العولمة الثقافية إلى زرع القيم والأفكار النفسية الفكرية والثقافية للقوى المسيطرة في وعي الآخرين وعلى الأخص أبناء المجتمعات العربية، وفتح هذه المجتمعات "اختراقها ثقافيا" وإسقاط عناصر الممانعة والمقاومة والتحصين... وإعادة صياغة قيم وعادات جديدة تؤسس لهوية ثقافية وحضارية أخرى لهذه المجتمعات مهددة هويتها الحضارية...»¹، فقد تفتتح لغة الحجاج على هذا المعنى من

¹ -حيدر حميد الدهوي، العولمة والقيم- رسالة في الطريق إلى ما بعد العولمة وقيمها-، دار علاء الدين، دمشق، 2008، ص 33.

زاوية تحول القيم وتغيرها ثقافيا واجتماعيا، لذلك فان البحث عن تلك الحجج لمقاومة تلك التناقضات قد يرر مفهوم نهاية التاريخ، وصدام الحضارات، والنظام العالمي الجديد، وكل ماله تأثيراً مباشراً على الهوية، لاسيما على القيم الإنسانية المشتركة بين الأديان السماوية والأرضية، والعلاقات الأخلاقية الإنسانية، ومن ثم تظهر تمثلاث هذه القيم كمنظومة ثقافية حضارية تستوعب علاقة الهوية بمؤسسات التنشئة الاجتماعية، فكل خطاب اجتماعي موجه نحو ثقافة مجتمع معين يشكل في بعده اللغوي والأخلاقي وجهاً آخر للانفتاح الثقافي على كل القيم التربوية والاعتقادات الدينية التي تغيرت، واختزلت صورة الإنسان المعاصر، وحولت أفكاره وقيمه ومعتقداته إلى أداة من أدوات اغتراب هويته، ونموذج لانهار ثقافة القيم داخل النسيج التواصل بين الأنا والآخر، وهكذا انصرفت كل الكتابات الفلسفية المعاصرة إلى ربط كل قيم التنشئة الاجتماعية بالأفكار المضادة وتحويل لغة هذا الخطر الثقافي إلى انتصار وتحرر اجتماعي تفرضه حتمية التواصل والحوار مع الثقافات والحضارات التي يجب أن توحد الخطاب وفق تلك الرؤى الثقافية التي تنمو وتتطور داخل ثقافة التواصل الاجتماعي، وليس إيديولوجيا الصراع والاستلاب، فكل ما تنفرد به لغة العولمة والحدثة من أفكار وأنساق ونظم قد جعل الهوية تصطدم بثقافة لغوية ودينية جديدة مهدت لميلاد كائنات في العالم الافتراضي، وسلوكات دخيلة على منظومة القيم الأخلاقية للمجتمع، «...أين شكلت النظرية التي قامت عليها العولمة في تخطيها للحدود والقوميات من أجل اختراق العقل الجماعي الإنساني بأدلجته بإيديولوجية دينية جديدة بعيدة عن اسم الدين باعتباره اعتقاداً بين الإنسان وربه...»¹، فالمحافظة على الهوية القومية وحدودها الوطنية ينطلق من ترسيخ الأساليب التربوية الأخلاقية الصحيحة لتنشئته الاجتماعية التي تخاطب وعي الأفراد وتحملهم على تعزيز فكرة التأصيل الديني واللغوي لقيم الهوية، فكل الأخطار الآنية والمستقبلية قد تقف عائقا أمام لغة التواصل الثقافي والاجتماعي مع الآخر، وهو ما يجعل الواقع العربي المعاصر أسيراً لتلك الأخطار التي تجاوزت عمل مؤسسات التنشئة الاجتماعية بنقل هذه الثقافة التواصلية من داخل منظومة القيم إلى خارج المجتمع، ومن ثم فإن ما تحمله الهوية في صورة تلك التقاليد الاجتماعية قد ينجم عنه انفصال وتفككا على مستوى طبيعة هذه التنشئة والتواصل الاجتماعي مع كل المعاني والقيم الكبرى التي يستعملها المجتمع للمحادثة والحوار اللغوي الذي تحكمه علاقات التعايش والانصهار، فالتجانس والتنوع الثقافي والاجتماعي الذي يميز الهوية وكل المرجعيات يشكل نموذجا لمظاهر الخطاب الذي يستهلك بنية الوعي، ويوجه كل الأنظمة الاجتماعية السائدة التي تحمل أبعاد التنشئة في تحولاتها اللغوية والدينية والتربوية، لذلك جاء مفهوم الهوية ليكيّف هذه التحولات مع قيم وأفكار الماضي والحاضر والمستقبل، «...فالقيم تعرف بكونها تلك المعتقدات حول الأمور والغايات وأشكال السلوك المفضلة لدى الناس، توجه مشاعرهم

¹- المرجع نفسه، ص، 57.

لغة الحجاج وخطاب الهوية بين قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل الاجتماعي

وتفكيرهم ومواقفهم وتصرفهم واختياراتهم، وتنظم علاقاتهم بالواقع والمؤسسات والآخرين أنفسهم والمكان والزمان، وتسوغ مواقفهم، وتحدد هويتهم ومعنى وجودهم...¹، وضمن هذه الرؤية يدافع الفرد عن هويته بلغة حجاجية تحمل كل المقومات التي تتلاءم مع قيم المجتمع، وكل موروث ثقافي ديني يستجيب لطبيعة الهوية التي تحتفظ بجذورها وعناصر مرجعيتها المحددة لكل الاتجاهات القيمية التي تحكم خصوصيات الثقافة العربية المعاصرة، وبذلك فكل ما أنتجته هذه الثقافة لا يخرج عن نطاق العلاقة بين قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل الاجتماعي التي تنزع إلى تشييد مجتمع مخالف للمجتمعات العربية، فلغة المعتقد الإسلامي، وخصوصيات اللغة العربية، ومكونات التاريخ قد تستوعب تأثير هذه العلاقة في بناء الهوية، ومن هذا المنظور يتحول هذا البناء إلى مرجع ثقافي واجتماعي يراعي قيم الدين واللغة وكل ما يميز المجتمعات العربية الإسلامية، فالتكامل بين القيم السائدة في الأسرة والمؤسسات الأخرى والمجتمع لا يتنكر لطبيعة الهوية التي تستمد وجودها وكيانيتها من اللغة والتربية والدين، والتواصل والاختلاف، وهي قيم تتجاهل التناقض والصراع وكل ما يؤدي إلى اللاتواصل بين الثقافات والحضارات، فالحوار بين قيم الهوية وأساليب التنشئة والتواصل يشكل منطلقا لخطاب الحداثة وانجازات الحضارة الإنسانية التي اعتبرت الثقافة العربية المعاصرة شكلا من أشكال القيم الجمعية والفردية التي انفتحت عليها المجتمع الإسلامي لمواجهة التحديات والصراعات التي فرضتها تلك التغيرات والتحولات والتطورات التي صاحبت قيم وأفكار الحضارة العربية من خلال الثقافة الاستعمارية ومشروعها اللغوي الديني التدميري.

يعتقد معظم المؤرخين لتطور المجتمع البشري أن ثقافة الإنسان تشكل مزيجا من الاتجاهات القيمية المتداخلة التي تحكمها أفكار الصراع والتواصل، الانفتاح والانغلاق، الإبداع والإبداع، وضمن هذا المزيج تتمظهر خطابات الحجاج اللغوي التي تستوعب عناصر الهوية وقيمها، لذلك فإن ثقافة التواصل الاجتماعي مع حركة هذه الخطابات قد تختزل طبيعة الغاية من أساليب تنشئة الفرد ودعوته إلى بلورة أفكار التجديد والحداثة، وقيم القديم والجديد ضمن لغة الحوار والتواصل، على مستوى كل ثقافة حجاجية تنفرد بمستقبل الهوية الدينية واللغوية، لاسيما من حيث توريث هذا المعنى داخل رواسب الماضي، وهذا ما أشار إليه "عبد الله العروي" في كتابه "أزمة المثقفين العرب": «...إن أزمة المفكرين العرب في علاقاتهم بالماضي تظهر أزمة في المجتمع ككل، فغالبيتهم يتبعون المنطق السلفي فيبالغون في تمجيد الثقافة العربية الكلاسيكية ويفقدون أنفسهم في متاهات ومنطلقات الماضي، حتى يشكل ذلك حالة من الاغتراب توازي ذلك الاغتراب القائم على تقليد الغرب واقتباس كل ما يقدمه دون اختبار

¹ - حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر - بحث استطلاعي اجتماعي-، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2ط،

وتمحيص، ففي الحالة الاغترابية الأولى يغرق الإنسان في الماضي، وفي الحالة الثانية يغرق في التبعية...¹، وضمن هذه الرؤية يتموقع مفهوم الهوية داخل هذه الحالة الاغترابية التي اعتبرها "عبد الله عروي" أزمة المثقف العربي، لتظهر تجليات هذه الأزمة في تقويض قيم التنشئة الاجتماعية وانعكاساتها الثقافية على عملية التواصل، «...فالحوار بين هذه الثقافات في العالم تبرره الأواصر الثقافية بين البشر، ولأن جوهر هذه الثقافة كامن في التحول، كان التباين بين الثقافات نتيجة حتمية، دون أن يعني هذا التباين فقدان اللغة الإنسانية المشتركة التي تحقق الحوار إذ أن التحول الثقافي والتقدم المعرفي إنما يجري بين البشر من الداخل، ولهذا يتعين علينا أن نبحث عن هذا التحول في داخل الآخر ضمن نزعة تبادلية بين الناس...»²، فطبيعة التفاعل الثقافي والاجتماعي يحمل تلك السمات المشتركة بين جميع الشعوب، لاسيما أن تاريخ الثقافات والحضارات يشكل حجر الأساس للغة التواصل البشري التي تنفرد بتلك المنظومة العالمية التي تقوم على مبدأ الاعتراف بالآخر وليس التنكر لأفكاره وقيمه ومعتقداته، فالحوار هو جوهر الكيان الثقافي والاجتماعي الذي تلتقي عند حدوده لغة الحجاج كمقوم حضاري للهوية خاصة على مستوى التواصل والتفاعل مع جميع ثقافات العالم، وتبقى العلاقة التاريخية مع الغرب أصل استعمالات الحداثة في دحض قيم الهوية الدينية الإسلامية، والهوية اللغوية العربية، لذلك انتقل هذا المفهوم إلى ربط عالمية الثقافة الحجاجية بأنماط التواصل والتعايش الثقافي والحضاري مع الأبعاد القومية للهوية وكل ما يحدد ماهية التراث الثقافي الذي يشترك مع طبيعة هذه الأبعاد، فاجتماع عنصر اللغة والدين يحمل في طبيعته تحولات الهوية على أساس التواصل مع تلك القضايا والقيم الجوهرية المشكلة لكل موروث ثقافي أو حضاري، «...فإن أي شعب من الشعوب لا يفقد حياته وكيانه إلا عندما يفقد لغته، ويصبح من الناطقين بلغة حكامه، عندئذ يكون الشعب قد ذاب وانصهر في بوتقة الفاتحين، واندمج فهم اندماجا يفقده كل ما كان له من حياة خاصة...»³، فآثر اللغة يختزل مظاهر الاندماج والتواصل مع المجتمع، لاسيما خطاب الهوية الذي يجسد هذا النموذج الذي يتحرك في حدود بلاغة الحجاج وأدواته في ترسيخ قيم الثقافة التواصلية داخل المجتمع، لذلك كان لانهاية هذه القيم تأثيراً سلبياً على مفهوم الهوية من زاوية التنشئة الاجتماعية للفرد، وآليات الممارسة السلوكية لتلك القيم الإنسانية التي تنطوي على خطاب التواصل والتفاعل مع الحداثة العولمية التي استنسخت الواقع الثقافي العربي، ووضعيتها الصراع الإيديولوجي والاعتراب الثقافي التي يعيشها، فالهوية الثقافية التي اختزلت ثنائية الأنا وعلاقته بقيم

¹- المرجع نفسه، ص، 339.

²- عفيف الهنسي، الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009، ص، 10.

³- ابن خلدون ساطع الحصري، ماهي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1985، ص، 57.

لغة الحجاج وخطاب الهوية بين قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل الاجتماعي

التنشئة الاجتماعية قد استوعبت نتائج التحول الحداثي للمجتمع، أين تجاوزت ثقافة التواصل الاجتماعي فكرة الحوار التي أعادت النظر في مفاهيم الهوية وكل ما يهدف إلى إرساء خطاب القيم في ممارسة لغة التواصل الإنساني، وضمن هذا الخطاب نلاحظ «عودة المؤسسات القديمة لتنخرط من جديد في إعادة بعث منظومة القيم الدينية والذاكرة الطقوسية التي من خلالها يحقق الفرد أمنه الوجودي، وما تنامي الفدراليات الأسرية ذات التوجهات المحافظة في تحديد الخيارات التربوية وازدياد المدارس الخاصة المسيحية سوى دليل على انبعاث البعد الديني في رحلة إعادة بناء الذات الغربية، إذ بعد أن أعلن عن موت الدين وانهيار الروح وبروز قيمة العقل كمرادف للكمال الإنساني، وبروز قيمة المواطنة كبديل علانقي تضبط من خلاله المؤسسات العلاقة بين الأفراد...»¹، وامتداد لطبيعة هذه القيم يظهر البعد اللغوي للثقافة الحجاجية في تشكيل قيم التنشئة الاجتماعية التي أفرزتها التجربة الأسرية والمدرسية في ترسيخ لغة التواصل والحوار بين ما هو مادي وروحي داخل المجتمع، لذلك لا يمكن أن نتصور أثر هذه اللغة خارج دائرة كل مشروع مجتمعي يتخذ من الثقافة كنظرية في السلوك، فالقيم الإصلاحية والمفاهيم التجديدية الهضوية قد ربطت معاني الحضور الثقافي لهذه القيم بطبيعة الهوية، فكل منتج اجتماعي يعبر عن الوضعية الاندماجية للهوية داخل كيان الجماعة التي تحمل توجهات الوعي وتحدد آليات الانتماء الجماعي، لهذا الغرض فإن تشكيل صورة الهوية على نحو ثقافي قد يتيح تحقيق ثقافة التواصل مع القيم اللغوية والدينية للمجتمع، وهكذا فإن قراءتنا للعلاقة بين أساليب الخطاب الحجاجي وعناصر الهوية قد يساعد على فهم خصوصيات نمطية التفكير والسلوك التي تنفرد بها الدوائر الثقافية في تداول المرجعيات وتوحيدها ضمن معجم ثقافي عربي إسلامي قصد تحقيق توازن اجتماعي لتركيبية المجتمع، لذلك تمكن "ابن خلدون" من خلال جدلية المغلوب والغالب أن يستشرف ذلك الحوار الحجاجي بين الأنا والآخر من منظور قابلية المسلمين إلى إتباع الحضارة الغربية والانهار والانصهار فيها، ومن ثم غاب مفهوم الهوية داخل هذه التبعية والاغتراب الثقافي والفكر الاستعماري، وهكذا لا يمكن أن نؤسس للقطيعة أو التواصل إلا من خلال تفكيك النتاج التراكمي للحدث والارتقاء بلغة العولمة ضمن قيم التنشئة الاجتماعية التي تتلاءم مع قيم الهوية خارج نموذج الثقافة الغالبة للحدث الغربية، وهكذا فطبيعة الحوار بين الوعي الإسلامي والأوروبي يتحرك في حدود، «...ما انطلق إليه المتأخرون لإعادة صياغة علاقتهم بالآخر مخيرين إياه بين استلهم النموذج التنويري كشرط لولوج عالم الحدث أو المكوث في خانة التخلف والاستبداد والتطرف...»²، فأبعاد هذا الخطاب قد يجعل من تلك القيم والأفكار التي تنطوي عليها ثقافة الآخر في صراع دائم مع ثقافة المجتمع العربي التي أفرزت الطابع العرقي للهوية وتمثلاتها

¹- نصر الدين بن غنيسة، عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص.25.

²- المرجع نفسه، ص.39.

الإيديولوجية، لذلك تحاول لغة الحجاج الاجتماعي أن توحد بين التعدد الهوياتي والفكر الحدائي، ومن ثم يبحث الفرد عن تلك القيم التي تنتهي عندها منظومة التواصل الاجتماعي التي تجمع بين جميع الجذور التاريخية والثقافية والعرقية والدينية التي تستند إليها الهوية كمرجعية تلغي كل الفوارق الإيديولوجية التي تحول المسار الديني واللغوي للهوية إلى استلاب عرقي يؤدي للتمزق الأخلاقي والصراع الحضاري، «...فمشكلات التنشئة الاجتماعية تختلف من مجتمع إلى آخر، فنجدها أسهل في بعض المجتمعات منها في مجتمعات أخرى، وذلك من حيث التكيف، وأيضاً بالنسبة لمطالب الثقافة التي تملها على الفرد، فكل مجتمع له نموه التاريخي المنفرد، ومجموعة المواقف ونمط الأدوار الثقافية، ومن ثم فكل مجتمع يختلف فيه عملية التنشئة الاجتماعية باختلاف طبيعة الثقافة، فالمجتمع الذي يفرض سياجا من القسوة سوف يظهر نموذجا من الشخصية يختلف عن ذلك النموذج الذي يظهره المجتمع الذي يدال فيه الآباء أبناءهم...»¹، فكل ما تتقاطع معه هذه النظرة السوسولوجية تعبر عن تلك العلاقة الثقافية بين ذلك الموروث القيمي والتكوين الاجتماعي لمنظومة السلوك التي تتحرك داخل الممارسات المحكومة بقيم الحوار وأساليب التواصل، فاللغة التي يتحدث بها المجتمع تفسح المجال لتجلي مفهوم الهوية وكل ما يشكل الكيان المادي والروحي لوجود الفرد وكيانته الثقافية والاجتماعية، أين يظهر دور اللغة والدين والتاريخ في إنتاج القيم التواصلية للخطاب الحجاجي الذي يتجاوز فكرة الصراع والتمرد على تعدد الهويات، وينفتح على خصوصيات المجتمع الذي يتعايش مع كل النظم والأنساق التي تشترك في بناء الهوية الثقافية والدينية، لذلك يبقى البعد الثقافي للحضارة الإنسانية مرجعا لعناصر هذا البناء التي تربط بين أصالة القيم وديمومتها الحضارية داخل المجتمع، ومن هذا المنظور تتحول مؤسسات التنشئة الاجتماعية إلى برنامج تربوي تعليمي يرسخ قيم الهوية دخل هذا البناء الذي ينفرد بالسمات المشتركة للإنسان ككائن اجتماعي، لذلك يرى "أريكسون" في كتابيه: "الطفولة والمجتمع"، و"الهوية، الشباب، والأزمات": «...أن الطفل عند الولادة يتخلى عن التبادل الكيميائي الذي كان يتم داخل الرحم، كي يفسح المجال أمام نظام جديد من التبادل الاجتماعي مع مجتمعه الذي سيحيا فيه، وحيث تتعرض قدراته وإمكاناته المتزايدة بالتدريج لكثير من فرص النمو، ومن الاحباطات التي تظهر داخل الإطار الثقافي الذي يعيش فيه...»²، فجميع تحولات النمو النفسي والاجتماعي لأننا تعكس مراحل وأطوار التنشئة الثقافية والاجتماعية للوعي والسلوك الذي ينطوي على تلك الدوافع والانفعالات التي يتفاعل معها الطفل داخل بيئته الاجتماعية،

¹ محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1991، ص 79-80.

² - حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الطفل- دراسة في علم الاجتماع النفسي-، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 2000، ص ص، 10-11.

لغة الحجاج وخطاب الهوية بين قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل الاجتماعي

وضمن طبيعة هذا التفاعل تنمو فكرة الهوية تدريجياً، ومن خلال كل القيم والأفكار والسلوكيات المكتسبة يستطيع الفرد أن يتمثل عملية التوافق الثقافي والاجتماعي التي تعبر عن المبادئ الأساسية للشخصية، لذلك جاءت اللغة كأداة لمخاطبة الآخر في صورة السلوك الحجاجي السوي الذي يمتد إلى تلك القيم التي تحمل مفهومها آخر للحوار بين ما هو فطري وما هو مكتسب، لهذا لغرض فواقع التواصل الثقافي والاجتماعي مع بنية تلك الأنماط والنظم، هو ما جعل ذلك التنوع والتباين الذي تحمله الهوية يستوعب خصوصيات الحوار بين الثقافات والحضارات والأديان، فكل عناصر التراث الإسلامي تواكب تجربة التواصل الاجتماعي والانفتاح الثقافي على الآخر، وبذلك فإن الطابع الحجاجي للخطابات البلاغية فقد توجه هذه التجربة لتحقيق ذلك الترابط اللغوي والمعرفي الذي تنفرد به لغة التواصل في سياق تلك العبارات والتراكيب والجمل التي تقتضيها مكونات الثقافة الحجاجية، ومن ثم فإن الولوج إلى عالم الهوية هو ما يساهم في تطوير المجتمع المحافظ الذي يحمل أهداف ومقاصد مؤسسات التنشئة الاجتماعية التي تعزز ثقافة التواصل الاجتماعي ضمن استعمال خطاب القيم الإنسانية التي تشيد نظاماً يترجم تلك الأفكار والسلوكيات الاجتماعية إلى ثوابت تعبر عن هوية المجتمع، فالوعي الإنساني هو حلقة من حلقات التفاعل الثقافي الذي يعزز علاقة ترسيخ الهوية بقيم التنشئة وأبعادها التواصلية وفق تلك التساؤلات التي أثارها لغة الحجاج، «...فالإجابة عليها على المستوى النظري التعبيري أو التطبيقي المستخلص من واقع الحياة اليومية التي يحياها الإنسان هو ضرورة ملحة لخلق وتهيئة أي مناخ ثقافي أو اجتماعي لفهم الهوية في صورة ما يميز الإنسان في لغته ودينه، وكل المكونات الثقافية التي توجه رمزية التواصل الاجتماعي بين الأفراد...»¹، فكل عمليات الاتصال والاجتماع التي تنطوي تحت نشاط القيم الأخلاقية قد يحمل نموذجاً ثقافياً يجمع بين مفردات الوعي والانتماء الذي تنتجه مؤسسات التنشئة الاجتماعية خاصة داخل المحيط التربوي الأسري والمدرسي، وبذلك يحمل المجتمع أهداف هذا المشروع في تشكيل ملامح الهوية الثقافية التي تنطلق من الحجاج وتكتمل في التواصل، فكل التحولات والتطورات التي تطرأ على العملية التربوية داخل المجتمع، تشير إلى العلاقة بين التغير الثقافي والتغير الاجتماعي لقيم الهوية في ظل تلك التحديات والرهانات التي تحمل مظاهر هيمنة الإيديولوجيا والحدثة التي تصطدم بمقاومة عناصر الهوية لآثارها وانعكاساتها السلبية، «...فالنزعة المحافظة للمجتمع تتخذ الدين مقوماً أساسياً من مقومات بقائها، فالأبوية في صمودها أمام محاولات التحديث والعلمنة وإقامة المجتمع المدني، لم تجد أفضل من المحافظة والأصولية لتصوير صراعاها مع القيم الحداثية وكأنه صراع مع الإسلام، وفي هذا السياق تم توظيف "التدين" فقي تكوين الأطر المرجعية العتيدة والراسخة بحيث تحول دون التغير

¹ - علي حسين يوسف، حوار في الفكر والأدب - أضواء على الثقافة المعاصرة في البحرين، دار لسان لعرب، بيروت، ط1،

الاجتماعي الذي يهدد البنى القائمة...»¹، وضمن هذا المعنى تشكل بنية القومية للمجتمع الحدائي سمة من سمات التحول في منظومة القيم التي تحدث حركية في التطور الاجتماعي لثقافة التواصل التي تختزل مراحل الغياب والحضور داخل المجتمع، ومن هذا المنظور حاولت الدراسات السوسيولوجية الحديثة أن تحدد خلفيات أزمة الهوية انطلاقاً من عوائق التواصل الاجتماعي التي فرضتها بعض الثقافات واللغات على النماذج التربوية والتعليمية لمؤسسات التنشئة الاجتماعية، لذلك تبقى مرجعيات الخطاب الحجاجي أسيرة ذلك المجتمع الذي فقد الخصوصيات الثقافية للهوية مما أثر سلباً على عملية التواصل اللغوي مع تلك الأنساق المحددة للوعي الاجتماعي، فالطابع التواصلية لمفاهيم اللغة الحجاجية قد ينفرد بها كل مجتمع في ممارسة آليات التفاهم والتخاطب، فأنظمة الحجاج والتواصل تستوجب تطوير مفاهيم اللغة انطلاقاً من مسار التعلم والاكساب الاجتماعي التي تنبثق عن كل القيم التي يشترك فيها الأفراد لاسيما طريقة التفكير والسلوك وكل ما يبلور الدور الاجتماعي والتربوي الذي يتطور داخل عناصر اللغة وأهدافها...«فالتمثلات الذهنية هي تمثيلات لصورة الصياغات أو التعبيرات المحكمة للغة داخلية هي لغة الفكر، ويجب أن ننظر إلى هذه اللغة باعتبارها لغة صورية مثل لغة المنطق الرياضي، فهي تتمتع بقواعد صرفية وتركيبية تمنحها استقلالاً صورياً وقواعد دلالية تدقق العلاقة بين تعابير اللغة والكيانات أو الوضعيات الممثلة...»²، فطبيعة هذا الطرح يشكل حجر الأساس لماهية القيم الاجتماعية التي تربط مفهوم الهوية بأهداف اللغة ومفرداتها وتعابيرها، وكل المعاني التي تنطوي على أبعاد التواصل مع قيم التنشئة الاجتماعية التي تشير إلى التفاعل المستمر للمجتمعات التقليدية مع الهوية بخلاف المجتمعات الحديثة المعاصرة، ومن ثم يربط العالم تلك الفوضى القيمة التي خلفتها تحولات العولمة بثقافة الإنسان الحجاجية الموجهة توجيهاً إيديولوجياً أعى الذي حول قيم الوعي والانتماء إلى صراع من الأضداد والتناقضات الثقافية التي صاحبت تلك التحولات الاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية والإعلامية في عالم اليوم، فحركة هذه التحولات قد أدمجت قيم الهوية داخل تلك الإيديولوجيات التي ولدت أزمة الأصالة والمعاصرة من جهة، وأزمة تعدد وتنوع وتباين الهويات من جهة أخرى، ومن ثم فطبيعة الحوار بين الثقافات والحضارات والأديان اصطدم بثورة الاتصالات والمعلومات كمقدمة من مقدمات عولمة الهوية وحدائقة قيمها ومكوناتها المادية والروحية، فمشكلة ثقافتنا تكمن في فهم تلك النظريات والمصطلحات والمعلومات والمفاهيم والأفكار التي وقعت في تناقض وتداخل بين ما هو معرفي وما هو إيديولوجي، أين انعكس هذا الفهم سلباً على منظومة قيم التنشئة الاجتماعية وانفتاحها الثقافي على منجزات العولمة،

¹ محمد عبد الخالق المدبولي، الشرعية والعقلانية في التربية-دراسة نقدية في الفكر والممارسة، تقديم: حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، لقاهرة، ط1، 1999، ص33.

² صابر الحباشة، اللغة والمعرفة - رؤية جديدة-، صفحات، دمشق، ط1، 2008، ص10.

لغة الحجاج وخطاب الهوية بين قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل الاجتماعي

والانفجار المعرفي وثورة المعلومات، ومن هذا المنظور فقد تنكرت المجتمعات الإسلامية لتلك الآثار السلبية التي تفصل الشعوب عن قيم ماضيها وتجعلها رهينة ثقافة الحاضر عن طريق المثاقفة أو الهيمنة في صورة تلك الخطابات والإيديولوجيات والأفكار التي أدت إلى ولادة النظام الاشتراكي والشيوعي والرأسمالي والإقطاعي، فكل ما يحمله المجتمع من خصوصيات ثقافية واجتماعية لا ينفصل عن طبيعة هذه النظم التي حملت تجليات الصراع والتوازن ثقافيا وإعلاميا وعولميا بين المجتمعات، وهو ما خلق نوعا من التفكك في ثوابت الهوية الإسلامية، وكل ما احتوته تلك المتغيرات والتحويلات التي لازمت فكرة صراع الحضارات، فكل الأزمات الثقافية التي يعاني منها العالم العربي مرتبطة بأثر قيم التنشئة والاجتماعية على الهوية، خاصة فكرة التواصل الاجتماعي مع تلك الثقافات الحجاجية والإعلامية والاجتماعية التي تبلورت ضمن الرؤية الجديدة لظواهر المجتمع، وكل ماتداولته وسائل الثورات الرقمية، وفتوات التواصل الاجتماعي من أفكار وقيم استهدفت هوية الفرد، فضلا عن التنوع الحضاري الذي يعبر عن حالة الفوضى والتبعية التي تعيشها الشعوب العربية في صراعاها الدائم مع الوافد الثقافي الغربي، لذلك يبقى السؤال الجوهرى المطروح عن طبيعة الهوية وعلاقتها بهذه الرهانات والتحديات مشكلة ثقافية قائمة تكشف عن نهاية تلك الصراعات والأزمات التي تعايشت مع كل فكر إيديولوجي قد اختزل تطور لغة الانفتاح على الآخر، فما يشهده العالم حاليا يعبر عن سيطرة العقل الإلكتروني على الإنسان وتأثيره على ثقافته اللغوية وهويته الدينية الإسلامية التي استجابت لطبيعة هذه السيطرة، أين تكيفت قضايا التراث الإسلامى مع هذه الأفكار التي ولجت إلى عقائدنا السامية، وتقاليدها وأعرافنا الاجتماعية، وكل موروث ثقافي يحتفظ بسماته وخصوصياته في الهوية، ومن هذا المنظور فإن اختلاف الإطار المرجعي لهذا المفهوم قد فسح المجال لصراع الهويات وطرائق التواصل الاجتماعي التي أجهضت قيم السمو الروحي للغة والدين والتاريخ والانتماء، خاصة علاقة الإسلام وأخلاقياته بالثقافة الغربية التي انفردت بقيم وأفكار تخالف المشروع الديني الإسلامى، لهذا الغرض يحاول المجتمع أن يؤسس خطابا أكثر ملاءمة للتواصل الاجتماعي الذي يربط قيم التنشئة بالهوية في إطار تلك الأفكار التي تدعو إلى صناعة تلك النخب الفاعلة التي تواجه كل ما هو مؤدج قصد تعزيز تنوع تاريخنا وثقافتنا للتي توجه تفكيرنا وسلوكنا الذي اختزل تحولات ومتغيرات الاغتراب الثقافي، وكل التناقضات الفكرية والحضارية التي أدت "إلى انهيار وتصدع تلك القيم والأخلاقيات التي اعتبرها المجتمع الإسلامى حجر الأساس لانتماء أفرادنا وانخراطه واندماجه الثقافى والحضارى.

خاتمة:

إن ما يميز علاقات التواصل الاجتماعي مع قيم التنشئة الاجتماعية يكمن في حقيقة تلك القيم الدينية والأخلاقية والعقائدية التي تحملها الهوية الثقافية لكل مجتمع ينفرد بخصوصيات عاداته وتقاليده، وكل موروث يتفاعل مع تلك المقومات والمبادئ التي توحد كل المرجعيات التي ينتهي عندها هذا التنوع والتعدد الثقافى الذي تنطوي تحته كل المفاهيم الحجاجية التي تستوعب أساليب الخطاب التواصلى مع ثقافة

الأخر، فالانفتاح على ثقافات العالم ولغاته هو جوهر ديمومة التأثير الثقافي والاجتماعي الذي يجعل من اشتراك الشعوب في تلك الأفكار والقيم نموذجاً لتطوير الإنسان وبناء وعيه وانتمائه، لاسيما البرامج الفكرية والسلوكية لمؤسسات التنشئة الاجتماعية التي يبدأ عملها بترسيخ قيم الوعي، والانتماء ويكتمل في التواصل مع الأفكار والأنساق والنظم التي تحددها لغة الحجاج من خلال مفاهيمها وحججها البلاغية، لذلك لا يمكن أن نعزز ثقافة تواصلية داخل المجتمع دون رؤية مستقبلية لطبيعة الحوار الثقافي مع كل موروث حضاري قد يعيق ممارسة هذه الثقافة في نطاق ما تتضمنه تلك الأعراف والتقاليد التي تعبر عن الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، فكل خطاب حجاجي يقوم على الحوار سيؤسس للتواصل، في حين الصراع سينجم عنه التمرد والعنف والتعصب والقطيعة، وبذلك فإن مظاهر التفاعل والتبادل والاشتراك قد تسمح بخلق أرضية توحيد الذات الثقافية الواحدة خاصة في بناء تلك الكينونة التي تنفرد بكل الأواصر الثقافية والجذور التاريخية والقيم العقائدية الثابتة التي تحقق التفاعل والتواصل بين المجتمعات، فتلك التحولات التي استوعبته علاقات التعايش الثقافي والحضاري قد جعلت من الدين الإسلامي يتواصل مع تلك الديانات التوحيدية الأخرى على أساس الاعتراف وليس التنكر والرفض، ومن ثم فإن المعالم الأخلاقية للحضارة الإنسانية تنصرف إلى ربط الهوية بلغة الحجاج على أساس عقائدي يشمل ذلك الاحتواء الثقافي المزدوج الذي يقارب الانتماء القومي الإسلامي مع الحوار الحضاري التقدمي، لذلك فكل ما ينمو ويتطور ضمن هذا النموذج الذي يحتفظ بدلالاته بين الهوية والتنشئة الاجتماعية التي تزيل كل حدود التواصل بين اللغات والثقافات والحضارات، وتفتح على كل المفاهيم والقيم التي يتحدث بها المجتمع كنظرية في الحوار تشمل عناصر الهوية العربية، فكل المنجزات والمكاسب التي تحققت ضمن الحركة الثقافية في العالم قد تناولت مسألة الانتماء كاندماج ثقافي يتماهى مع تلك التحولات التي حملت معها مشروع الحضارة الغربية الذي يجسد خطاب الحداثة كلغة للتواصل مع ثورة العلم، ومن هذا المنظور فإن إرساء قيم التنشئة الاجتماعية داخل المثل العليا للمجتمع والتراث قد يستوعب لغة الاتصال والتواصل مع كل الأفكار المشتركة التي تعبر عن حوار الموروث بالوافد وكل ما ينطوي تحت جدلية الأصالة والحداثة، ومن ثم أخذت الثقافة العربية تفتح على الوعي القومي الذي يتجاوز الثقافة المادية للمدنية، لتتجلى أبعاد أزمة الهوية وتأثيراتها الجلية على المجتمع الذي يختزل مظاهر الانغلاق والانطواء على الذات، فالثقافة القومية تتحرك في نطاق التفاعل المشترك مع مؤسسات التنشئة الاجتماعية التي تزود أفراد المجتمع بنموذج روحي حامل لقيم التراث، ومتشعب بتلك الانتماءات الثقافية التي تربط الهوية بمعاني التواصل في حركتها اللغوية الحجاجية، لذلك فإن كل تراث حضاري يعبر عن حوار العقل البشري مع قيم وأفكار التحديث والتجديد، وبالتالي فإن مستقبل الهوية الثقافية التي تتخذ من اللغة والدين مرجعية لها هو ما يعزز علاقة لفرد بهويته، والعودة والتواصل مع التراث على أساس الإختلاف وليس الخلاف، ومن هذا المنظور فمختلف الإيديولوجيات قد تناولت عصر الهوية الحضارية للفكر الحدائي الملازم للعلم

لغة الحجاج وخطاب الهوية بين قيم التنشئة الاجتماعية وثقافة التواصل الاجتماعي

والحضارة وليس قيم التنشئة الاجتماعية، ومن ثم تتدخل اللغة الحجاجية للمجتمع لترسيخ الوعي والانتماء طبقاً لهذه القيم التي تستشرف مستقبل التواصل الاجتماعي مع الهوية الثقافية الإسلامية، وبذلك فإن تلك الصراعات والأزمات التي تفاعلت مع الهوية قد حملت في طبيعتها كل المتغيرات والتحويلات الثقافية والاجتماعية في سياقها الأيديولوجي الذي نتج عنه اغتراباً في فهم طبيعة اللغة والدين، وهو ما أعاق تحقيق ذلك الانتماء الحضاري القومي الذي يجمع بين الحداثة والهوية، ومن ثم تظهر اللغة الحجاجية ضمن قيم هذا الحوار والتواصل كجوهر لأساليب الممارسة الروحية التي تعبر عن التباين والتعدد الثقافي والحضاري وكل ما تنفرد به الهوية داخل المجتمع العربي الإسلامي.

قائمة المراجع:

1. ابن خلدون ساطع الحصري، ماهي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1985.
2. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الطفل- دراسة في علم الاجتماع النفسي-، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 2000.
3. حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر - بحث استطلاعي اجتماعي-، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1985.
4. حيدر حميد الدهوي، العولمة والقيم- رسالة في الطريق إلى ما بعد العولمة وقيمها-، دار علاء الدين، دمشق، ط2، 2008.
5. صابر الجباشة، اللغة والمعرفة - رؤية جديدة-، صفحات، دمشق، ط1، 2008.
6. عفيف البهنسي، الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2009.
7. علي حسين يوسف، حوار في الفكر والأدب- أضواء على الثقافة المعاصرة في البحرين، دار لسان العرب، بيروت، ط1، 1983.
8. محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1991.
9. محمد عبد الخالق المدبولي، الشرعية والعقلانية في التربية-دراسة نقدية في الفكر والممارسة، تقديم: حامد عمار، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1999.
10. نصر الدين بن غنيسة، عن أزمة الهوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012.